الشخصية بين السرد القرآني والسرد الشعبي (البطل نموذجا).

أ.نور عبد الرشيد

جامعة محمد بوضياف – المسيلة -الجزائر-

تمهيد:

الخطاب السردي في أبسط مفاهيمه هو خطاب حركة الشخصية أو الشخصية في إطار زماني ومكاني له دلالة يرسله سارد يمتلك قدرة خطابية ويتلقاه متلق يمتلك قدرة تأويلية تمنح الخطاب دلالة ما.

وقد تعاقبت مناهج نقدية متعددة على قراءة الخطاب السردي ومكوناته الأساسية كالشخصية التي خضعت إلى تحولات عميقة منذ الشعرية الأرسطية إلى عصرنا هذا مع السردية بشقيها الشعري والسيميائي.

ويستعرض تاريخيا حسن بحراوي[1] أهم المحطات الأساسية لما كانت المأساة عند أرسطو هي أساسا محاكاة لعمل ما فقد كان من الضروري لها وجود شخصيات تقوم بذلك العمل وتكون لكل منها صفات فارقة في الشخصية والفكر تنسجم مع طبيعة الأعمال التي تنسب إليها وفي هذا التحديد الأرسطي تكون طبيعة الأحداث هي المتحكمة في رسم صورة الشخصية وإعطاء ها أبعادها الضرورية والمحتملة وتصبح المأساة لا تحاكي عملا من أجل أن تصور الشخصية ولكنها بمحاكاتها للعمل تتضمن محاكاة للشخصية من حيث صفاتها الأخلاقية وما تعبر عنه من حقائق.

وهكذا ففي الشعرية الأرسطية كانت الشخصية تعتبر ثانوية بالقياس إلى باقي عناصر العمل التخيلي أي خاضعة خضوعا تاما لمفهوم الحدث وقد انتقل هذا التصور إلى المنظرين الكلاسيكيين الذين لم يعودوا يرون في الشخصية سوى مجرد اسم للقائم بالحدث.

وفي القرن 19 عندما احتلت الشخصية مكانا بارزا في الفن الروائي حيث أصبح لها وجودها المستقل عن الحدث بل أصبحت الأحداث نفسها مبنية أساسا لإمدادنا بمزيد من المعرفة للشخصيات، أو لتقديم شخصيات جديدة وفي إطار البنيوية التكوينية أكد قولدمان على العلاقة بين البطل والعالم وجعلها في موقع القرار بالنسبة لبنية الملحمة أو الرواية وفي تراتبية الشخصيات داخل السرد بقيم "نور ثروب فراي" ثنائية البطل والبطل المضاد التي تشكل أطراف الصراع داخل الرواية وذلك لأن هذه الأخيرة بسبب شكلها نفسه ذات طبيعة سجالية. إن كل اهتمام فراي سيتركز حول مواجهة البطل

---

(1) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، مركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1990،ص 208.

وخصمة فالبطل الذي يحمل صفات الكائن الإلهي ويمثل العالم العلوي سيجد نفسه في مواجهة البطل المضاد الذي يمثل القوى الشيطانية للعالم السفلي وقدرة البطل على كسب تلك المواجهة، هو ما يميز بين الأسطورة حيث تكون قدرات البطل ذات طبيعة إلهية والرواية حيث تكون قدراته إنسانية محدودة

وخلافا للاتجاهات السابقة التي ارتبطت بفلسفات وتوجهات اعتبرت الشخصية جوهرا نفسيا نجد المناهج النصية التي قاربت الشخصية من خلال شكلها ووظيفتها في نظريات السرد الحديثة التي تجاذبت الشخصية بوصفها مكون هام في البنية السردية، وتقع هذه النظريات في ثلاث مجموعات:

اعتماد على كونها تتعامل مع السرد:

1- بوصفه متوالية من الأحداث (بروب/غريماس /هامون).

2- أو بوصفه خطابا ينتجه سارد(فتمثلها الأعمال المهتمة بالرؤية السردية مع هنري جيمس وجون بويون .

3- أو بوصفه نتاجا ينظمه قراءه ويمنحونه معنى وهي الأحداث فتندرج تحت نظريات التلقي.

وتعتبر الشخصية عند المجموعة الأولى بمثابة وحدة دلالية قابلة للتحليل والوصف أي من حيث هي دال ومدلول وليس كمعطى قبلي وثابت ومن هذه الناحية يلتقي مفهوم الشخصية بمفهوم العلامة اللغوية حيث ينظر إليها كدال فارغ في الأصل يمتلئ تدريجيا بالدلالة كلما تقدمنا في قراءة النص عن طريق إسناد الأوصاف والأدوار، على أن المدلول الشخصي يتشكل أيضا بالإضافة إلى ما سبق من التعارضات والعلاقات التي تقيمها الشخصيات داخل الملفوظ الروائي الواحد، إن هذا التحليل الذي ينظر إلى الشخصية كوحدة دلالية قائمة الذات ويجعلها مشابهة في اشتغالها بالعلامة اللغوية يدعونا إلى العمل بمفهوم مستويات الوصف الأساسية في اللسانيات والسيميائيات.

الشخصية في السرد القرآني:

ولقد كان لحضور السرد في الخطاب القرآني عموما، بصورة متواترة وراسخة أثرا بارزا في الأغراض التي يقصدها، ولما كانت الشخصية الدينية وأدوارها من أهم المكونات التي يقوم عليها الخطاب السردي ويتحرك عبره الفاعل ضمن فضاءات زمانية ومكانية كان تشكيل الشخصية مشروط ببنية القصة النبوية التي تجسده وبالمقام الذي تساق من أجله للمتلقي الأول (محمد ص) والمرسل إليهم.

ذلك أن السرد القرآني[1] (قد تأسس على نوعين من القصص:

---

(1) سليمان عشراتي الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ط 1998، ص80.

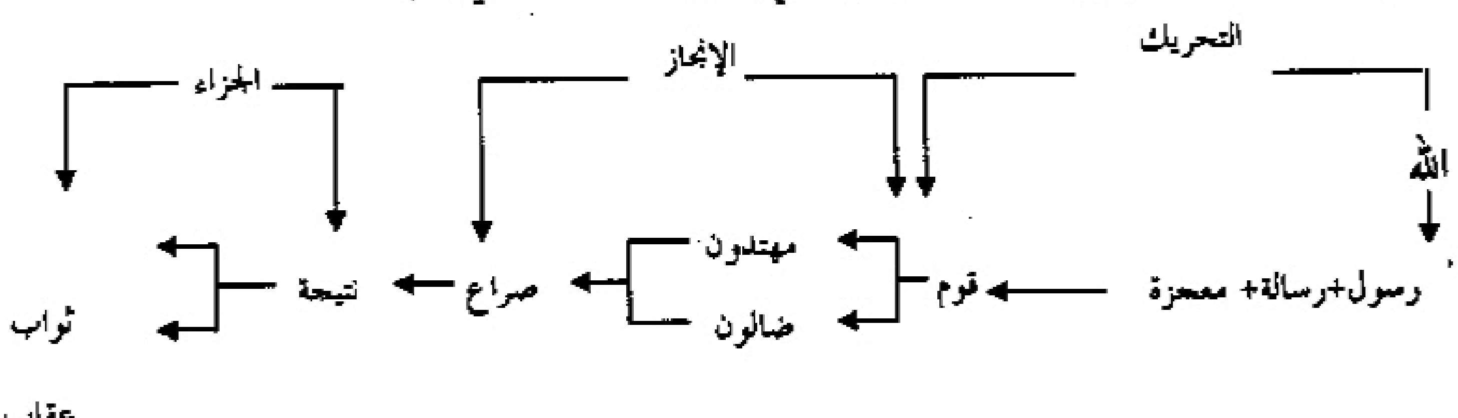
1- القصص ذو المرجعية التاريخية وهو المتعلق بأبناء الرسل والأقوام والأمم الغابرة وما كان من أمرهم في تكذيب رسل الله وما انتهى إليه مصيرهم جراء ذلك.

2- القصص ذو المرجعية الـــمـــثلية وهو نوع أقل تواردا من السابق وقد ساقه القرآن على سبيل التمثيل)

بالنسبة للنوع الأول (قصص الأنبياء) غالبا ما تكون قصة سيرة حيث يبادر الخطاب القرآني إلى ربط الحديث الديني المقرر (وهو البعثة) بوقائع حياة النبي المنتظر منذ الطفولة ليستمر شريط الوقائع مثلا حقا مرهصا للحدث الأساسي أي البعثة لتمضي من ثمت حياة (الفاعل) المحكومة بوظيفة التبليغ وبمكابدات الصمود والدعوة إلى الله) (1)

فكان من الطبيعي أن تتبلور من معطيات تلك السير. حيث تتولى آليات السرد القرآني نقل السيرة التاريخية كتوال لأحداث الشخصية إلى الخطاب السردي ضمن سلسلة من الوظائف، تشكل روايته نمطا سرديا من الناحيتين البنائية والوظيفية.

تمثل هذا النسق النمطي في البنية الخارجية التي يمثلها المخطط التالي:



فشخصية موسى في قصة طه عبارة عن قصة تحتوي متتاليتين وظيفتين تأخذ إحداهما بعقب الأخرى تبدأ بمرحلة الوحي والتكليم، وترتد إلى مرحلة الميلاد والنشأة وتعود إلى مرحلة التكليف بالدعوة يتلوهما الجدال والمواجهة، ويختم بإغراق فرعون وانجاء بني إسرائيل "ولا يقف عند هذا الحد الجزائي بل إنها تمضي متابعة الإخبار عن سيرة بني إسرائيل بما يميز تلك السيرة من تذبذب، وجحود فكان هذا الامتداد القصصي الإضافي أي هذا الانفتاح في بنية السرد، إنما حدث لتستوعب القصة مآل تجربة النبوة، لأنها كانت تجربة فرزية إقصائية خارجية(مع فرعون وآله) وداخلية مع بني إسرائيل (قوم النبي)" (2)

(1) المرجع نفسه،ص81.

(2) سليمان عشرات الخطاب القرآني ،ص78.

بيد أن المتتالية الثانية لا تنتهي كسابقتها بنهاية جزائية فعليه وإنما كان جزاء السامري العزل (لا مساس) ونسف العجل في البحر كفرعون.

ونلاحظ على المستوى العام بين الترتبين للأحداث أن نظام ترتيب الأحداث في الخطـــاب —السورة— خرج عن التوازن مع نظام الترتيب في القصة متضمنا سردا داخل السرد باستخدام تقنية المفارقة الزمنية وهي الاسترجاع حيث انطلق السرد من وسط المتن الحكائي- سيرة موسى بقوله تعالى: "وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارًا....." طه الآية 10.

ثم يرتد السرد عبر اللاحقة الطويلة المدى لتتناول القسم الأول من حياة موسى (موسى الإنسان) بصورة موجزة ومكشفة ليعود ثانية إلى الحدث الأساس وهو تكليم الله موسى وتكليفه بالدعوة(أي موسى النبي) محققة التوازي بعد ذلك بين الزمنيين، حيث تنعدم المفارقات سواء في الجزء الأول مع دعوة فرعون ومحاورته ومجابهة سحرته، بالإغراق وإنجاء بني إسرائيل أو الجزء الثاني من حياة موسى النبوية مع بني إسرائيل وتلقي التوارة حيث أنتجت هذه الزمنية السردية المحكمة معاني الهداية وجزاءها والإضلال وعواقبه.

وحدد المثال العاملي الموجد للمتتاليتين:

المرسل	←	الموضوع	←	المرسل إليه
الله		إنقاذ بني إسرائيل – هدائيهم		بني إسرائيل
		↑		
المساند	←	الفاعل	←	المعارض
هارون		موسى		فرعون
أم موسى				السحرة قبل الإيمان
أخت موسى				السامري

فسمات الفاعل، النبي، (البطل) المعد منذ البداية لهذا الدور النبوي المرتبط بحياة قومه وهو عادة يحمل الصفات التي تأهله لهذا الدور، فقد يولد ولادة عادية (موسى، محمد ،ابراهيم...) أو غير عادية (عيسى ويحي....) وفي كل الحالات يوحى إليه ويصير نبيا أو رسولا يحمل من مستقبله متميزا فريدا مرتبطا بإرادة الله ويحقق مشية وينفذ قدره في التاريخ.

ويؤكد على بشرية النبي من جهة وكما له الخلقي والخلقي ونبله وأصالته فهو جزء من الواقع

الاجتماعي يباشر تغيره من منظور ديني توحيدي.

الشخصية في السرد الشعبي

تنبهت الدراسات الأدبية الحديثة لمجالات الأدب الشعبي وخصائصه وفنونه المختلفة (الأمثال الشعبية والأغاني الشعبية، والسير الشعبية).

فبالإضافة إلى أحدى خصائصه وهي (مجهولية المؤلف) يعتمد الأدب الشعبي[1]

على الرواية والحفظ في انتقاله من جيل لآخر وهو لهذا تغير من جيل لآخر لا ينال التغيير من أصول ولكن ينال من تتابع الشكل الفني والمحتوى المضموني متلائما مع متغيرات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من جيل إلى جيل).

ولا شك أن السير والقصص الشعبية تعبر تعبيرا ضمنيا عن متغيرات المجتمع في كافة مجالاته، فهي صورة واعية ومباشرة وأبطالها يعبرون عن الوجدان الجمعي عن طريق إسقاط الواقع على حقبته تاريخية سابقة بل وإسقاط المضمون المعاصر على مضمون تاريخي سابق. ترى في هذه السير والقصص حقبا تاريخية تبدأ أحيانا في بعض المقدمات من بدء الخلق ثم تنتقل حتى بدء الرحلة التاريخية مع البطل (عنترة، سيف، أبو زيد الهلالي) وهي تلح على صراع بين قوتين، قوة خير مطلق هي عادة في كفة صاحب السيرة، فهو البطل والمقدار والفارس الخيّر الذي يتحقق النصر على يديه، وقوة شر مطلق تحقيقا للصراع الأزلي الذي واجهه الإنسان منذ هبط إلى سطح الأرض.

وكقصص الأنبياء حيث تتولى آلية السرد تحويل المتن التاريخي للبطل إلى سيرة شعبية تصبح تجسيدا الدلالة ما في كل عصر.[2]

والفرق بين السيرة الشعبية والقصص الشعبي

أن السير الشعبية تاريخية في المقام الأول. تعكف على التاريخ لتستخلص مادتها منه وتحرص على الهدف التاريخي لا تتحول عنه حتى نهاية السيرة، وأبطالها يتحولون إلى أبطال قوميين أو بمعنى آخر يتحولون إلى (نماذج بطولية).

أما القصص الشعبي فهو يصور في أغلبه الصراع من أجل استمرار الخير من نماذج البشرية أكثر موافقة للواقع المعيش تستقي قصصها من الحياة اليومية وبطلها (إنسان عادي بسيط).

---

(1) أثر الأدب الشعبي الحديث في الادب الحديث، د حلمي بدير، دار الوفاء، مصر، ط1، 2003، ص19.

(2) المصدر السابق ،ص53.

يحيل لفظ السيرة إلى الدلالة الاصطلاحية العامة في الموروث الثقافي العربي والديني منه بخاصة (على الترجمة المأثورة لحياة النبي) وإقترنت بالمغازي الدالة على أفعال الفروسية إبان الغزو، وتوسع مفهوم السيرة تبعا لتنوع الأشكال السيرية التي تنضوي تحت هذا النوع، فأصبح مصطلح السيرة الشعبية يدل على (مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة، ذات سمات فنية متشابهة وذات أهداف فنية متماثلة).

ويعتبر الدكتور عبد الله إبراهيم أن (المتن الرئيس للسيرة الذي يصور غزوات الرسول (ص) بشكل وحدات شبه قصصية وهيكل السيرة بأجمعه يمثل وصفا شاملا مفصلا لشخصية ذات أهمية إعتبارية في التاريخ إبتداء من ظهورها وإنتهاءا بوفاتها مرورا بأهم الأفعال التي قامت بها طوال حياتها الأمر الذي يؤكد أن بنية السيرة النبوية كانت الموجه الأول لصياغة البنى السردية للسيرة الشعبية[1].

ويحدد بنية الشخصية السيرية (من خلال متن السيرة الشعبية الذي يتألف من سلسلة من الوحدات الحكائية المتعاقبة تمثيل أفعال البطل خاضع لمنطق خاص ينتظم مكوناتها تكشف مجمل التطورات في شخصية البطل، والوقوف على مراحل حياته.

تعبر دلاليا عن طبيعة المهمة التي ينجزها، وأن ميزات المعبرة عن جميع المراحل التي يمر بها تتضافر معا لتمنح الشخصية السيرية صفاتها وخصائصها [2].

إن تتبع شخصية بطل السيرة الشعبية تطورا ودلالة يكشف تواترا في عدد من الثوابت.

1- النبوءة:

تهيء النبوءة في السيرة الشعبية لظهور البطل قبل ولادته وتلمح في الوقت نفسه إلى الأعمال البطولية التي سيقوم بها.

2- الأصول النبيلة:

تتهيأ للبطل السيرة أصول بنيلة قبل ولادته وإن كان لا يعرض بها إلا في مرحلة لاحقة من الأحداث.

3- الاختبار والاعتراف الأولي

بعد أن يجتاز البطل الاختبار الأولي ويعترف به بطلا تنتدبه القبيلة أو المملكة فارسا لها ومدافعا عنها ضد الأخطار التي تتعرض لها.

---

(1) السردية العربية- عبد الله ابراهيم، منشورات 2000، ص147.

(2) المصدر السابق ،ص151.

4- التكليف القومي الديني:

يصبح البطل بعد سلسلة من التجارب شخصية قومية دينية، بعد الانتصار على خصومه الذين يختلفون معه دينيا وقوميا.

الاشتراك والتشابه والاختلاف بين (النبي) في السرد القرآني وبطل السيرة الشعبية

- الاشتراك:

- كلاهما من فئة الشخصيات المرجعية التاريخية حسب تصنيف فليب هامون.
- كلاهما شخصية بشرية واقعية مع عراقة في النسب وكمال خلقي وخلقي.
- كلاهما دور ديني قومي أو اجتماعي محوري في السرد بتعدد أدواره ووظائفه.
- كلاهما يمر بالاختبارات الثلاثة: (الترشيحي والحاسم والتمجيدي).

التشابه:

- النبي (في قصص الأنبياء) له دور تأسس للكون القيمي لجماعته.
- أما االبطل فدلالة السرد تعديل جزئي في بعض القيم.
- المعجزة مع النبي في بعض مراحل السرد أما البطل الشعبي فبالإضافة إلى قواه الخاصة بالخوارق والجن والسحرة......

- الأختلاف:

- المرسل في حالة النبي (هو الله عز وجل) الذي يختار ويصطفي.

أما المرسل في سيرة الشعبية فهي الأوضاع الاجتماعية المهتزة.

- البعثة والنبوة في النبي بخلاف بطل السيرة الشعبية.

مراجع:

1- بنية الشكل الروائي: حسن بحراوي، مركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1990.
2- الخطاب القرآني، سليمان عشراتي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1998.
3- أثر الأدب الشعبي الحديث في الأدب الحديث، د حلمي بدير، دار الوفاء، مصر، ط1، 2003.
4- السردية العربية- عبد الله ابراهيم، منشورات 2000.
5- أضواء على السيرة الشعبية فاروق خورشيد.